Ahmed Al-Rifai's Tomb: A Historical and Archaeological Field Study

Dr. Basim A'ula'il Khalef
University of Thi-Qar
College of Archaeology
E-mail: dr.basem@utq.edu.iq

Abstract:

The shrines are one of the important buildings in the history of Islamic civilization, and although the idea of their appearance dates back to periods prior to the Islamic era, it took another turn in terms of the idea of construction, architectural elements and in terms of the acceptability of its construction, so there was a debate about this between Islamic sects and the tomb of Sheikh Ahmad Al-Rifai is only one of these shrines. In this research, we tried to deal with Sheikh Ahmad Al-Rifai's biography with reference to the method that his name was employed as a reference for it, and we also discussed archaeologically the mausoleum of architecture as well as the architectural and decorative elements that it contained in this shrine despite the fact that many renovations have taken place to these elements in which the antiquity disappeared from it as a result of the renovations. One of the important motives behind this research is an attempt to draw attention to this important landmark for many reasons, including the biography of Sheikh Ahmad Al-Rifai himself, which can be considered as the subject of the great controversy in terms of lineage and the way it was attributed. Furthermore, an attempt has been done to highlight this architectural landmark to keep it from the attempts of restoration and the addendum of ill-considered.

Key words: Tomb, Al-Rifai, shrines, Islamic civilization, Biography

ضريح أحمد الرفاعي دراسة تاريخية اثارية ميدانية

م. د باسم عليعل خلف
جامعة ذي قار / كلية الآثار
E-mail: dr.basem@utq.edu.iq

الملخص:

الأضرحة من العمائر المهمة في تاريخ الحضارة الاسلامية وعلى الرغم من ان فكرة ظهورها تعود الى فترات سابقة من العصر الاسلامي الا انها اخذت تنحى منحاً آخر من حيث فكرة الانشاء والعناصر العمارية ومن حيث مقبولية انشائها فكان هناك جدلاً حول ذلك ما بين المذاهب الاسلامية ، وما ضريح الشيخ احمد الرفاعي الا واحدٌ من تلك ، قد حاولنا في هذا البحث تناول سيرة الشيخ احمد الرفاعي مع الاشارة الى الطريقة التي اتخذت من اسمه مسماً لها، كما بحثنا من الناحية الاثارية عمارة الضريح والعناصر العمارية والزخرفية التي ضمها على الرغم من أن كثير من التجديدات قد أتت على هذه العناصر وان القدم اختفى منه بفعل ذلك ، ومن الدوافع المهمة وراء هذا البحث هو محاولة لفت النظر الى هذا المعلم المهم لأسباب كثيرة منها سيرة الشيخ احمد الرفاعي نفسه التي هي مثار جدل كبير من حيث النسب والطريقة التي نسبت اليه، وكذلك محاولة ابراز هذا المعلم العماري للمحافظة عليه من محاولات الترميم والاضافة غير المدروسة .

الكلمات المفتاحية: الضريح . القبر . الزهد . التصوف .العناصر العمارية . العناصر الزخرفية .

أولاً : ملامح من سيرة الشيخ أحمد الرفاعي

هو أحمد بن سلطان علي المكي الرفاعي بن السيد يحيى بن السيد ثابت بن السيد علي حازم ابو الفوارس بن السيد احمد بن علي المرتضى بن السيد ابي الفضائل علي بن السيد رفاعة الحسن المكي بن السيد مهدي بن السيد محمد ابي القاسم بن السيد الحسن القاسم ابي موسى بن السيد عبد الله الحسين عبد الرحمن الرضا بن السيد احمد الصالح بن السيد موسى بن السيد ابراهيم المرتضى بن الامام موسى الكاظم بن الامام جعفر الصادق بن الامام محمد الباقر بن الامام زين العابدين علي السجاد بن الامام الحسين السبط بن الامام علي بن أبي طالب[١]

والرفاعي نسبة الى جده رفاعة[٢]، هذا النسب ثابت عند أتباع الطريقة الرفاعية ، أما المؤرخون الذين هم أقرب عهداً الى وفاة احمد الرفاعي فإنهم لا يصلون بهذا النسب الى ما وصل اليه أصاحبه ومريديه، فإبن الاثير يرجع نسبه الى رفاعة بن نصر بن مالك بن غطفان بن قيس بن جهينة بن زيد[٣] وهو بهذا ينفي انتساب الرفاعي الى ال البيت (عليهم السلام) . يرى اخرون ان نسبه يعود الى رفاعة وهي قبيلة من قبائل العرب[٤] وقد أشكل البعض على هذه النسبة الى قبيلة رفاعة من العرب واعتبروا ان هناك خطأً قد وقع فيه الناسخ وان المراد بقبيلة من الغرب وليس من العرب واعتبر هذا سهو من الناسخ[٥]. وقد أنكر بعض المحققين نسب الرفاعي الى أهل البيت عليهم السلام ومنهم بعض اصحاب الطريقة القادرية الذين كتبوا مصنفات ورسائل تبطل ما يدعيه الرفاعية من وجود اي صلة نسب بينه وبينهم فقد ذكر صاحب كتاب الفتح المبين ((لم أعلم للرفاعي نسباً صحيحاً الى علي ابن ابي طالب ولا لأحد من ذريته وانما الذي وصل الينا وساقه الحفاظ وصح لدينا انه ابو العباس احمد بن الشيخ ابي الحسن علي بن يحيى بن حازم بن رفاعة المغربي الاصل البطائحي الرفاعي نسبة الى جده الاعلى رفاعة))[٦] والذي هاجر الى المغرب من اضطهاد العباسيين للعلويين في المشرق[٧].

وقد ذكر الشافعي ان السيد يحيى الرفاعي الحسيني جد السيد احمد الرفاعي كان أول القادمين الى العراق من المغرب وسكن البصرة عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وبعد مدة انتقل والد السيد احمد الرفاعي الى البطائح وسكن قرية أم عبيدة وتزوج من إبنة خاله السيدة فاطمة وانجبت له السيد احمد الرفاعي في عام ٥١٢هـ/١١١٨م[٨]. وهناك من يرى ان تاريخ مولده كان في عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م[٩]. وتختلف المصادر حول حياة والده فيشير البعض الى ان والده توفي وهو في بطن امه فنشأ في كفالة خاله[١٠] ، بينما يذكر في مصادر اخرى ان والده توفي وهو في السابعة من العمر[١١] .

وحاول الرفاعيون إحاطة مولده بهالة قدسية من خلال الرؤى التي رسمت طريق مولده حتى قبل الولادة فقد اشارت المصادر التي تناولت هذا الموضوع ان خاله رأى في المنام الرسول صلى الله عليه واله وسلم وهو يقول له ان الله يعطي اختك بعد اربعين يوماً ولداً يكون إسمه أحمد الرفاعي ومثل ما أنا رأس

الانبياء فهو رأس الاولياء[١٢] فمن هذه الرواية نستطيع القول بأن الرفاعيين رسموا طريق السيد احمد بأنفسهم ولكي يكون الامر مقبولا لدى عامة الناس فقد ربطوا حياته برؤى صادرة عن النبي حتى يكون التأثير ابلغ في نفوس مريدي احمد الرفاعي، وقد حاول بعض الشيوخ جعل السيد احمد الرفاعي وكأنه المنقذ للامة وأنه المهدي المنتظر فقد ذكر أن الشيخ احمد بن خميس كان ذات يوم جالساً بين اصحابه وهو يحدثهم وهم يحدقون به وإذا به ينهض وينادي بأعلى صوته لا اله الا الله ظهر والله المهدي المنتظر وكرر هذا العمل ثلاث مرات[١٣] ، وهنا لابد من الوقوف عند هذه الحادثة فبعض الباحثين حاول الربط ما بين التشيع والتصوف[١٤] وكما هو معروف ان التشيع مرتبط بالإمامة اي بالاعتقاد بأن الامام علي (عليه السلام)هو الخليفة من بعد الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وهذا الامر لا يعتقد به المتصوفة ومنهم اصحاب الطريقة الرفاعية على الرغم من ان اغلب المتصوفة يحاولون ان يرجعوا بنسبهم الى ال البيت عليهم السلام ، هذا من جانب ومن جانب اخر فان الشيعة الامامية الاثني عشرية مؤمنون بان الامام المهدي قد ولد وهو غائب في الوقت الحاضر بينما يرد عند الصوفية هو شخص منتظر الولادة وهذا ما تؤكده هذه الحادثة التي اشارت الى ولادة المنتظر وهو امر ثبت خطأه ونعتقد ان هذه الحادثة اما تم نقلها خطأ او انها دست عن الشيخ احمد بن خميس .

تربى الشيخ احمد تربية دينية على يد خاله الذي كفل تربيته ، واشارت المصادر الى انه كان رجلاً صالحاً شافعي المذهب[١٥]. وهنا لابد من الوقوف عند هذه المفردة التي وردت في كثير من المصادر وهي لماذا هذا التحول فكما تقدم في نسب الشيخ احمد الذي تم ذكره مستندين الى المصادر التي بينت لنا انه نسب متسلسل يرجع الى الامام علي عليه السلام وهذا يعني ان انتسابه مذهبياً لابد وان يكون الى المذهب الجعفري اي مذهب الامامية فكيف تم هذا التحول من المذهب الامامي (الاثني عشري) الى المذهب الشافعي ؟ لعل مرد ذلك لسببين رئيسين ، الاول هو انتقال عائلة الشيخ احمد الرفاعي الى بلاد المغرب من مكة كما ذكرنا بفعل ما جرى من احداث تاريخية دفعتهم لذلك مما جعلها وبمرور الزمن تأخذ بالمذهب الشافعي مذهباً لها ، والسبب الثاني ان المذهب الشافعي هو الغالب على اعتقاد أهل المغرب ولذلك تأثر الشيخ احمد الرفاعي بالجو العائلي الذي كان يعيشه ولاسيما اذا ما علمنا ان خاله الذي يعد المعلم الاول له كان اصلاً شافعياً فمن الطبيعي ان ينشأ الشيخ على المذهب الشافعي.
واتصف الشيخ احمد الرفاعي بكل الصفات الحميدة التي نادى بها الدين الاسلامي فقد عرفه البعض بالزاهد الكبير وسلطان العارفين في زمانه[١٦]، وهو احد اعلام التصوف الاسلامي ونسبت اليه طريقة من طرق التصوف التي عرفت بالطريقة الرفاعية كما عرفت بالأحمدية والبطائحية[١٧]. وكانت هذه الطريقة محل انتقاد كثير من العلماء والباحثين بسبب بعض الافعال والممارسات التي يقوم بها اتباع الطريقة من قبيل دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيَات وغيرها من الامور التي تعارف على ممارستها[١٨] ،

علماً ان المتمعن في وصايا الشيخ احمد الرفاعي لا يجد فيها اي ذكر لتلك الافعال بل كان ينكر كل ما من شأنه ان يشوه الشريعة الاسلامية ومن بين وصاياه المهمة في هذا المجال يتضح منها ان الشيخ كان يدرك ان اصاحبه سوف يقومون بأفعال قد تكون ذات تأثير على الدين الاسلامي وعلى منهجه في التصوف والبعد عن كل الافعال التي لا تتفق مع السنة النبوية المطهرة قوله لأصاحبه: ((لا تسبوني من بعدي . قالو كيف نسبك وانت إمامنا ؟ قال تقولون شيئاً لم أقله وتفعلون شيئاً لم أعمله فيراكم الناس ويسمعونكم فيقولون لولا أنهم رأوا شيخهم ولولا أنهم سمعوا شيخهم ما قالوا وما فعلوا، فيسبوني . اعلموا أن كل شيء خرج عن كتاب الله وسنة رسوله فليس مني))[١٩]. فمن هذه العبارة نستطيع القول أن الشيخ أحمد الرفاعي لم تصدر عنه الافعال التي يقوم بها اصحاب الطريقة الرفاعية في الوقت الحاضر ولعله تنبأ بها ولذلك نهى عنها، كما انه لم يثبت لدينا أن الشيخ قد مارس مثل هذه الافعال بل العكس كان يدعو الى التمسك بالسنة النبوية والابتعاد عن البدع[٢٠] ، ولعل هذه الممارسات والافعال وصلت الينا مع الاحتلال المغولي للعراق فهذه الممارسات كانت معروفة في الديانات الهندية القديمة[٢١]. وكانت هذه الافعال محل نقد من الكثير ولكن مع كل هذه الانتقادات الا ان مكانة الشيخ أحمد الرفاعي كانت محط تقدير واحترام لما تمتع به من زهد وبعده عن ملذات الدنيا ومباهجها فكان يقوم بالعمل بنفسه ويساعد الارامل والايتام وكان يدعو اصحابه للعمل وعدم الاتكال على الاخرين ، وهذه الميزة اتصف بها الكثير من المتصوفة والزهاد وكما هو معروف ان التصوف ظهر كردة فعل على معالم الترف واللهو التي تفشت بين الخلفاء والاغنياء في العصر الاموي واتسعت هذه المظاهر في العصر العباسي وازاء هذا ظهر جماعة من المسلمين دعوا الى الزهد والتقشف ويعيشون عيشة الكفاف[٢٢] .

ثانياً : كرامات الشيخ أحمد الرفاعي

على الرغم من حالة الزهد والبساطة التي تمتع بها الشيخ أحمد الرفاعي إلا أن اتباعه قد غالوا[٢٣] كثيراً به واظهروا على يديه كرامات يرى البعض انها من نسج الخيال وهذا ما فسح المجال للتشكيك بالطريقة الرفاعية أو بالأفعال التي يقوم بها أصحابها ، وقد جمع الشيخ النبهاني كراماته[٢٤] والتي وردت في العديد من المصادر وهي كثيرة لا يمكن ان نحصرها في هذا البحث ، ولعل ابرز كرامات الشيخ أحمد الرفاعي التي كانت محط نقد هي كرامة مد اليد المعروفة له وهي التي شاع ذكرها وخلاصتها ان الشيخ عزم على الحج في سنة (٥٥٥ هـ/١١٦٠م) وقد دخل يوم دخوله المدينة المنورة قوافل الزوار من الشام والعراق واليمن والمغرب والحجاز وبلاد العجم وقد زادوا عن تسعين ألفاً فلما أشرف على المدينة ووصل الى الحجرة النبوية فقال السلام عليك يا جدي فقال له عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم وعليك السلام يا ولدي ثم ذكر البيتين الشعريين المشهورين :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبـــل الارض عـني وهـي نائبتي
وهذه دولة الاشـــــباح قد حضرت فأمدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فمد له رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يده الشريفة النورانية من قبره فقبلها والناس ينظرون وقد كان في الحرم الشريف الالاف حين خروج اليد الطاهرة [٢٥].

لقد أورد الكثير من المؤرخين سيرة حياة الشيخ احمد الرفاعي ومرَ ذكر بعضها في ثنايا البحث ولكن أغلب هذه المصادر لم تتناول هذه الكرامة مما جعل التشكيك فيها كبيراً فقد ذكر الالوسي عدة ملاحظات حولها إذ يقول: إن أحسن من رواها الامام السيوطي وقد اسندها الى بعض المجاميع[٢٦]، ولم يذكر سنداً واهياً فضلاً عن أن يكون صحيحاً، كما إن الذين ادعوا رؤية اليد وسمعوا رد السلام كانوا نحو مائة الف او يزيدون فقد شكك بهذا العدد الهائل وكيف يمكن للمسجد ان يتسع لهذا العدد[٢٧] ، فضلاً عن ان اصحاب كتب وتراجم الصوفية الاوائل لم يتعرضوا لذكر هذه الحادثة مع انهم نقلوا كل ما روي عنه إذ يروون كلاً من قصة الجرادة والبعوضة ويهملون هذه الحادثة[٢٨]. ومما تجدر الاشارة اليه أن ظهور يد الرسول الكريم صلى الله عليه واله وسلم لم تكن هي المرة الاولى فقد جاء ذكرها عند السمهودي حيث يذكر "أن خالد بن الوليد بن الحارث بن الحكم بن العاص وهو ابن مطيرة قام على منبر رسول صلى الله عليه واله وسلم يوم جمعة فقال : لقد استعمل رسول الله صلى الله عليه واله وسلم علي بن ابي طالب عليه السلام وهو يعلم أنه خائن ولكن شفعت له ابنته فاطمة رضي الله عنها ، وداود بن قيس في الروضة ، فقام فقال : أس ، أي يسكته ، قال: فمزق الناس قميصاً كان عليه شقائق حتى وتروه وأجلسوه حذراً عليه منه، وقال : رأيت كفاً خرجت من القبر قبر رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وهو يقول : كذبت يا عدو الله كذبت يا كافر مراراً " [٢٩] . ولعل الذين امنوا بحادثة مد اليد اتخذوا منها سنداً للاحتجاج على امكانية ظهور يد الرسول على اعتبار ان هناك سابقة ويمكن ان تكون دليلاً يمكن ان يستندوا عليه اذا ما تم انكارها من قبل الرافضين لها. أما من الناحية العمارية التي بني بها قبر الرسول صلى الله عليه واله وسلم وهذا ما يوضحه لنا السمهودي إذ يتبين لنا انه بني داخل جدارين بينهما فاصل مختلف الابعاد وقد تم بناؤه في زمن عمر بن عبد العزيز[٣٠] مما يعني ان هناك مسافة كبيرة جداً ما بين الجسد الطاهر ومكان جلوس الشيخ أحمد الرفاعي وهذا ما يدعو الى عدم تقبل هذا الامر لدى الكثير ممن اطلع على هذه الحادثة .

واخيراً لابد من ان نذكر انه ليس للشيخ احمد الرفاعي عقب وانما العقب لأخيه واولاده يتوارثون المشيخة والولاية وقد توفي يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[٣١].

ثالثاً : الدراسة الاثارية

قبل البدء بالدراسة الاثرية والوصفية لضريح أحمد الرفاعي لابد من التطرق الى مصطلح الضريح وما جاء معه من المرادفات التي استعملت من قبل الباحثين وعامة الناس للوقوف على هذا المصطلح وما ورد في المعاجم اللغوية من ألفاظ تشير له ، فمن الناحية اللغوية ورد في لسان العرب ان الضريح سميَ ضريحاً لأنه يشق له في الارض شقاً وهو الشق في وسط القبر واللحد في الجانب[٣٢] ، والقبر مدفن الانسان وجمعه قبور والمقبرة بفتح الميم واقبرته اي صيرت له قبراً يدفن فيه ويقول الله تعالى ((ثم أماته فأقبره))[٣٣] والقبر مما أُكرم به بنو آدم[٣٤]. اختلفت التسميات التي أُطلقت على الضريح بين الباحثين وعامة الناس ولعلنا يمكن ان نحصرها بثلاث كلمات هي المزار والمقام والمشهد[٣٥] وكلها تدل على مكانة وأهمية الاشخاص الذين تم دفنهم فيه ولهذا نلاحظ ان بعض هذه الاضرحة قد اكتسبت قدسية ولاسيما عندما تضم بعض هذه الاضرحة أجساداً لأهل بيت الرسول الكريم صلى الله عليه واله وسلم أو الاولياء والصالحين.

اما في المصطلح الاثري والمعماري فإن الضريح هو الحجرة المشتملة على قبر أو حجرة تعلوه قبة، وقد ميز البعض بين القبر الذي هو حفرة الميت وبين القبة التي هي بناء مقام فوق القبر الذي أخذ في العصر الاسلامي أشكالاً عديدة[٣٦].

بقى ضريح أحمد الرفاعي مندرساً لفترة طويلة حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري عندما قامت الحكومة العثمانية بعمارته وبنت عليه قبة وحرماً وصحناً وأماكن لإقامة الزائرين تقيهم من الحر والبرد[٣٧]. ومرت على الضريح مراحل متعددة من العمار كان أولها في عهد ناصر باشا السعدون في حدود سنة ١٢٥٨هـ _ ١٨٦٨م والمرحلة الثانية من الاعمار كانت على نفقة السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٣٠٧هـ _ ١٨٨٩م ، أما المرحلة الثالثة من الاعمار فقد جرى فيها ترميم وصيانة الحضرة الرفاعية وكانت هذه المرة على نفقة السادة الرفاعية والمنتمين للطريقة الرفاعية واهل الخير والاحسان[٣٨] .

ويحيط الضريح في الوقت الحاضر سور يحتوي على مدخل من الجهة الشمالية والذي يقابل مدخلاً آخر يؤدي الى داخل الضريح ويمتاز هذا المدخل بارتفاعه ويتراجع عن الجدار الى الداخل ويكتنفه عقدان زخرفيان من الآجر المنجور وينتهي بعقد مدبب تعلوه زخرفة آجرية من الاطباق النجمية المحصورة داخل مستطيل يمتد على عرض واجهة المدخل، وتعد هذه الاطباق النجمية من الاشكال الهندسية ذات الابتكار الاسلامي الخالص والتي برع فيها الفنان المسلم اعتماداً على القواعد والاصول الهندسية في العمارة الاسلامية وتتكون هذه الاطباق النجمية من ثلاثة أجزاء رئيسة وهي الترس والكندة واللوزة[٣٩]. وواجهة المدخل مشابهة لواجهات الاضرحة الاسلامية والتي تتميز بالارتفاع والتراجع الى الداخل ، كما يمكن ملاحظة زخرفة الاطباق النجمية على المدخل المؤدي الى داخل الضريح والتي يمكن مشاهدتها وهي تزين الجدار الخارجي للمدخل.(لوحة رقم ١) .

بعد هذا المدخل الرئيس يجتاز الزائر ممراً زينت جدرانه بلوحة مرمرية نقشت عليها نسب السيد أحمد الرفاعي وكذلك الأبيات الشعرية المنسوبة له (لوحة رقم ٢) يؤدي هذا الممر الى الصحن الذي بني في ضلعيه الشمالي والغربي عدد من الأواويين والتي تم تحويلها الى غرف تستخدم لاستراحة الزائرين ومبيتهم في أوقات الزيارة بمناسبة ولادة ووفاة السيد أحمد الرفاعي ولاسيما لأصحاب الطريقة الرفاعية (لوحة رقم ٣)، فضلاً عن ذلك فإن الصحن يضم أربعة قبور في الجهة الغربية منه. كما ان المأذنة تقع في الجهة الجنوبية الغربية من الصحن والتي سيأتي ذكرها لاحقاً.

وصف الضريح من الداخل :

بعد أن يجتاز الزائر الصحن المكشوف يدخل الى الضريح من خلال مدخل يؤدي الى الرواق المحيط بالقبة والضريح ويواجه الزائر بيتين من الشعر كتبا باللغتين العربية والفارسية يؤرخان لسنة ١٣٠٧ هجرية نستطيع قراءتهما ((**جدد السلطان سلطان الورى .... جامعاً في الشرق كالبدر المنير فيه قبر ابن الرفاعي أرخوا .... إن هذا الجامع القطب المنير**)) (لوحة رقم ٤) زينت جدرانه بالأطباق النجمية والتي هي عبارة عن استخدام للقطع الاجرية بعد تقطيعها بأشكال هندسية ومن ثم يتم ترتيبها لتكوّن في النهاية زخرفة هندسية وهي نوع من انواع التوريق الاسلامي ، أبعاد هذا الرواق المحيط بالضريح ٤ متر × ١٩,٦٠ متر وكسيت جدرانه بالمرمر بارتفاع مترين ، أما سقفه فقد تم بناؤه بهيئة قبو وزين بالزخارف الاسلامية والتي تمثل عناصر من المراوح النخيلية محصورة داخل اشكال هندسية تتمثل بمعينات غير منتظمة والمنفذة على الجص بطريقة الحفر (لوحة رقم ٥) .

وشيدت جدران هذا الرواق بسمك بلغ ٢,٢٠ متر لتكون قاعدة متينة تتحمل وزن القبة المقامة عليه ، كما زينت جدران هذا الرواق بنوافذ ذات عقود مشابهة لسقف الرواق أي بطريقة القبو وبلغ ارتفاعها ٢,٣٠ متر وعرضها ٩٠سنتمتر . وزعت هذه النوافذ على النحو الآتي فتحت خمس منها في كل من الجدار الغربي والشرقي واربع في الجدار الشمالي ، أما الجدار الجنوبي للرواق فقد خلا من هذه النوافذ واقتصر على وجود محراب ارتفاعه ٢,٩٠ متراً وعرضه ١,١٣ متراً ، تم اكساؤه بالمرمر الاخضر وتوجت نهايته بآية من القرآن الكريم تتمثل بالآيات الاولى من سورة يس ((**يس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥**)) وقد تم نقش البسملة والتصديق بطريقة جميلة من قبل النقاش فقد تم وضع هذين العبارتين بصورة متقابلة في أعلى الآية القرآنية مع زخرفة نباتية تمثل مروحة نخيلية نفذت بطريقة الحفر على الجص وهي الطريقة التي تمت بها زخرفة سقف وجدران الرواق (لوحة رقم ٦) .

فتحت في هذا الرواق أربعة ابواب تؤدي الى داخل حجرة الضريح المربعة الشكل أبعادها ٢٠ ,٧ متر x ٢٠, ٧ متر كسيت جدرانها بالمرمر وبارتفاع مترين . يتوسط هذه الحجرة ضريح الشيخ احمد الرفاعي وقد وضع فوقه شباك من البرونز وخشب الساج ابعاده ٥, ٢متر x ٣,٥ متر x ٢,٤٠ متر ارتفاعاً(لوحة رقم ٧) . ويغطي الضريح قبة ضخمة كروية الشكل زينت من الداخل بالزخارف الاسلامية الهندسية والنباتية فضلاً عن ذلك فقد استخدامت قطع المرايا في تزين باطن القبة والتي أضفت عليها منظراً بديعاً بسبب انعكاس اشعة الشمس الداخلة اليها من خلال النوافذ الاربع التي فتحت في رقبة القبة والتي كان لها دور في ادخال الضوء والهواء الى داخل الضريح . أما القبة من الخارج فقد كسيت بالألواح الخزفية ذات اللون الفيروزي تتخللها ست صرر(صرة) تضم داخل كل صرة زخرفة من العناصر النباتية بالوان مختلفة، وزينت رقبة القبة من الخارج بأشكال هندسية تتمثل بالمعينات المنفذة باستخدام قطع من الخزف ذات اللون الاسود والفيروزي .(لوحة رقم ٨) ومن الملاحظات التي تلفت النظر في ضريح الشيخ احمد الرفاعي أن القبة التي تغطي الضريح لم تتخذ الشكل المعروف في القباب المتمثلة بالقباب المقرنصة[٤٠] كما هو الحال مع قبة الشيخ عمر السهروردي وقبة السيدة زمرد خاتون وغيرها من القباب التي ظهرت في العراق على قبور الشخصيات المهمة ومنهم المتصوفة والاولياء ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى إتباع النمط العماري نفسه الذي ساد في العصر العثماني وكذلك زهد اصحاب الطريقة الرفاعية وبعدهم عن زخرف الحياة الدنيا، وربما كذلك لبعد ضريح الشيخ احمد الرفاعي عن مركز السلطة لذلك لم يول الاهتمام في عمارته على الرغم من كثرة اتباعه .

المأذنة :

تقع المأذنة في الركن الجنوبي الغربي للضريح وترتفع لأكثر من ثمانية أمتار ومحيطها ٢٠, ٦ متر، وزين بدنها بالزخارف الهندسية باستخدام الآجر ، ويتم الارتقاء الى اعلاها من خلال سلم داخلي يتكون من ثمان وخمسين مرقاة . توجت هذه المأذنة من الأعلى بجوسق صغير ارتفاعه ١,٥ متر سقط جزء منه ويعلو هذا الجوسق ثلاث كرات من النحاس تنتهي بهلال. أما شرفة المؤذن فترتفع لمسافة متر واحد واستندت على مقرنصات حوض المأذنة والمكونة من ثلاث حطات ذات عمق قليل وهي مبنية بالكامل بالآجر (لوحة رقم٩) . وذكر البعض من المؤرخين ان البناء القائم اليوم لربما شيد في عهد السلطان عبد الحميد الثاني [٤١] . ولعل ما يؤكد عمارته في عهد الدولة العثمانية وبالتحديد فترة السلطان عبد الحميد هو اللوحة التذكارية التي سبق الاشارة لها (لوحة رقم ٤).

الجدير بالملاحظة هنا ان الرحالة الذين زاروا ضريح احمد الرفاعي لم يتطرقوا الى عمارة هذا الضريح وانما اكتفوا فقط بالإشارة الى احوال أهل الطريقة الرفاعية من دخول النار وأكل الحيات والضرب

بالسكاكين ، ولو انهم أشاروا الى عمارة الضريح لأمكننا تصور شكل الضريح في تللك الفترة ولاسيما ان بعضهم زاره بفترة تكاد تكون قريبة من عصر وفاة احمد الرفاعي ومنهم الرحالة ابن بطوطة الذي ذكر في رحلته ان الفرصة سنحت له لزيارة قبر احمد الرفاعي ولكنه لم يعطينا وصفاً للضريح وانما اكتفى بذكر احوال اتباع احمد الرفاعي مع اشارة بسيطة الى رواق الضريح وانه رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء[٤٢].

الاستنتاجات

١. اختلاف المؤرخين والباحثين حول احمد الرفاعي اذ لم يكن هناك اتفاق بينهم في اثبات نسبه الى ال البيت عليهم السلام ولذلك كان هناك جدل حوله .
٢. اتصف أحمد الرفاعي بالزهد والتقشف والبعد عن ملذات الحياة وكان يقوم بأعماله بنفسه وكان يدعو اصحابه وتلاميذه الى العمل وعدم الاتكال على الاخرين .
٣. لم يثبت لدينا ان احمد الرفاعي كان يقوم بالأفعال التي يمارسها أصحاب الطريقة الرفاعية في الوقت الحاضر بل العكس فقد دعا الى الابتعاد عن البدع وأوصى بالتمسك بالسنة النبوية .
٤. أُجريت على الضريح اعمال بناء وترميم على فترات مختلفة مما جعل الضريح يفقد العديد من العناصر الفنية والتخطيطية وهذا ما يدعونا الى المحافظة عليه وعدم اجراء اي عمليات ترميم او صيانة ما لم تكن مدروسة وتحت اشراف المؤسسات المختصة .
٥. المحافظة على ما تبقى من العناصر العمارية التي تحتفظ بنوع من القدم التاريخي ومنها المأذنة مع اجراء الصيانة اللازمة لها .

اللوحات

(لوحة رقم ١) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٢) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٣) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٤) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٥) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٦) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٧) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٨) تصوير الباحث

(لوحة رقم ٩) تصوير الباحث

الهوامش:

القرآن الكريم

١) الفاروثي ، ابي عمر عز الدين احمد بن الامام محي الدين ابي اسحق بن الامام ابي الفرج ، ارشاد المسلمين لطريقة شيخ المتقين ، مطبعة محمد افندي مصطفى ، ١٣٠٧ هـ ، ص ٢٢-٢٣ .

٢) الصيادي ، محمد ابو الهدى ، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الاكابر ، بيروت ، ١٣٠١هـ .، ص ١٣.

٣) ابن الاثير ، عز الدين ابي الحسن علي بن محمد بن محمد ، اللباب في تهذيب الانساب ، ج١، القاهرة ، ١٣٥٧هـ ، ص ٤٧٢.

٤) الشعراني ، عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى ، تحقيق احمد عبد الرحمن السائح و توفيق علي وهبة ، ج١، ط١، القاهرة ،٢٠٠٥، ص ٢٥٠.

٥) الصيادي ، محمد ابي الهدى ، البرهان المؤيد ، ط١، مصر ، ١٣٢٢هـ ، ص ٨ .

٦) القادري ، ظهير الدين ، الفتح المبين فيما يتعلق بترياق المحبين ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ١٣٠٦ هـ ، ص١٠٢.

٧) ابو كف ، احمد ، اعلام التصوف الاسلامي ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ١٨ .

٨) الشافعي، علي ابي الحسن الواسطي،خلاصة الاكسير في نسب سيدنا الغوث الرفاعي الكبير ، ط١ ، مصر ، ١٣٠٦هـ ، ص ٢٩ – ٣٠.

٩) الذهبي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد بن عثمان ، العبر في خبر من غبر ،ج٣، تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط١، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٧٥.

١٠) ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر ، طبقات الشافعية ، ج١ ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط١، ليبيا ، ص ٦٣٠.

١١) الفاروثي ، مصدر سابق ، ص ٣٠ .

١٢) الصيادي ،القلادة ، مصدر سابق، ص ٢٩.

١٣) الصيادي ، المصدر نفسه ، ص ٢٩.

١٤) الشيبي ، كامل مصطفى ، الصلة بين التصوف والتشيع ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص٣٥٢ .

١٥) ابن خلكان ، ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، مجلد ١، دار صادر بيروت ، ١٩٧٨، ص١٧١.

١٦) الذهبي ، شمس الدين محمد بن عثمان ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٩٩٦ ، ص ٢٤٨ .

١٧) الصفدي ، صلاح الدين خليل ايبك ، الوافي بالوفيات ، تحقيق احمد الارناؤوط ، تركي مصطفى ، ج٧ ، ط١ ، لبنان ، ٢٠٠٠م ، ص١٤٣ .

١٨) الذهبي ، مصدر سابق ، ص ٧٥ .
١٩) ابو كف ، مصدر سابق ، ص ٢٧ .
٢٠) الصيادي ، محمد ابو الهدى ، الطريقة الرفاعية ، مصر ، ١٣٢٥هـ ، ص ٦٧ .
٢١) محمد ، سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ج١ ، مصر، ١٩٧١ ، ص ٣٠٥ .
٢٢) الرفاعي ، أنور ، الاسلام في حضارته ونظمه الادارية والسياسية والادبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، دمشق ، ١٩٩٧ ، ص ٦٥٨ .
٢٣) الغلو في اللغة التجاوز عن الحد والخروج عن القصد . وللمزيد حول الغلو ينظر الشيخ المفيد ، محمد بن محمد بن النعمان بن المعلم العكبري البغدادي ، تصحيح اعتقادات الامامية ، ط١ ، قم ، ١٤١٣ هـ ، ص ١٣١ . وكذلك ينظر . الشتري ، محمد بن ناصر بن عبد العزيز ، مظاهر الغلو عند الصوفية حقائق وملابسات ، ط١ ، الرياض ، ٢٠٠٣ ، ص ١٧ وما بعدها .
٢٤) النبهاني ، يوسف بن اسماعيل ، جامع كرامات الاولياء ، تحقيق ابراهيم عطوه عوض، ج١، ط١ ، الهند ، ٢٠٠١م، ص ٤٩٠وما بعدها
٢٥) الفاروثي ، مصدر سابق ، ص ٣٤.
٢٦) السيوطي ، جلال الدين ، تنوير الحلك ، ج٢ ، تركيا ، ١٩٨٦ ، ص ١١ .
٢٧) الالوسي ، ابي المعالي محمود شكري ، غاية الاماني في الرد على النبهاني ، مجلد ١ ، ط٢ ، ب . م ، ١٣٩١هـ ، ص ٢٢٤ .
٢٨) دمشقية ، عبد الرحمن ، تهذيب الرفاعية ، ط١ ، ب .م ،١٤١٢ هـ ، ص ٢٨ .
٢٩) السمهودي ، نور الدين علي بن أحمد ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج٤ ، ط٤ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ١٣٥٦ .
٣٠) السمهودي ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٥٤٤ وما بعدها
٣١) الصفدي ، مصدر سابق ، ص ١٤٤ .
٣٢) ابن منظور ، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، مجلد ٢ ، باب ضرح، قم ، ايران ، ١٤٠٥هـ ص٥٤٦.
٣٣) سورة عبس ، الآية ٢١.
٣٤) السخاوي ، ابي الحسن نور الدين علي بن احمد بن عمر بن خلف بن محمود ، تحفة الاحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، مراجعة محمود ربيع و حسن قاسم ،ط ١، مطبعة العلوم والآداب ، القاهرة ، ١٩٣٧م ، ص٦.
٣٥) الشهابي، قتيبة ، مشيدات دمشق ذوات الاضرحة وعناصرها الجمالية ، دمشق ،١٩٩٥ ، ص ١١. للمزيد ينظر العاني ، علاء الدين أحمد ، المشاهد ذات القباب المخروطية في العراق ، دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٨٢م ، ص ١٧ وما بعدها .

٣٦) رزق ، عاصم محمد ، معجم مصطلحات العمارة والفنون الاسلامية ، مكتبة مدبولي ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص ١٧٥.

٣٧) حرز الدين ، محمد ، مراقد المعارف ،ج١، ط١ ، تحقيق ، محمد حسين حرز الدين ، منشورات سعيد بن جبير، ١٩٩٢، ص١٢٨.

٣٨) السامرائي ، يونس ابراهيم ، السيد احمد الرفاعي حياته _ اثاره ٥١٢هـ – ١١١٨م/ ٥٧٨هـ –١١٨٢م ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٧٧ وما بعدها.

٣٩) راشد ، رامي ربيع عبد الجواد، عمارة المساجد في عهد المولى اسماعيل العلوي بمدينة مكناس دراسة اثرية حضارية ، ج٣، ط١، القاهرة ، ٢٠١٣، ص٢٩٠.

٤٠) الحديثي ، عطا ، عبد الخالق ، هناء ، القباب المخروطية في العراق ، مديرية الاثار العامة ، بغداد ، ١٩٧٤، ص ١٤ وما بعدها .

٤١) حرز الدين ، مصدر سابق، هامش١ ص ١٢٩–١٣٠.

٤٢) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد ، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج ١ ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص١٩٥.

المصادر:

١. ابن الاثير ، عز الدين ابي الحسن علي بن محمد بن محمد ، اللباب في تهذيب الانساب ، ج١، القاهرة ، ١٣٥٧هـ.

٢. ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد ، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج ١ ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٧م.

٣. ابن خلكان ، ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، مجلد ١، دار صادر بيروت ، ١٩٧٨م.

٤. ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر ، طبقات الشافعية ، ج١ ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط١، ليبيا.

٥. ابن منظور ، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، مجلد ٢ ، باب ضرح، قم ، ايران ، ١٤٠٥هـ.

٦. ابو كف ، احمد ، اعلام التصوف الاسلامي ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٢م.

٧. الالوسي ، ابي المعالي محمود شكري ، غاية الاماني في الرد على النبهاني ، مجلد ١ ، ط٢ ، ب . م ، ١٣٩١هـ.

٨. الحديثي ، عطا ، عبد الخالق ، هناء ، القباب المخروطية في العراق ، مديرية الاثار العامة ، بغداد ، ١٩٧٤م.

٩. حرز الدين ، محمد ، مراقد المعارف ،ج١، ط١ ، تحقيق ، محمد حسين حرز الدين ، منشورات سعيد بن جبير، ١٩٩٢م.

١٠. دمشقية ، عبد الرحمن ، تهذيب الرفاعية ، ط١ ، ب .م ،١٤١٢ هـ.

١١. الذهبي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد بن عثمان ، العبر في خبر من غبر ،ج٣، تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط١، بيروت ، ١٩٨٥م.

١٢. الذهبي ، شمس الدين محمد بن عثمان ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٩٩٦م.

١٣. راشد ، رامي ربيع عبد الجواد، عمارة المساجد في عهد المولى اسماعيل العلوي بمدينة مكناس دراسة اثرية حضارية ، ج٣، ط١، القاهرة ، ٢٠١٣م.

١٤. رزق ، عاصم محمد ، معجم مصطلحات العمارة والفنون الاسلامية ، مكتبة مدبولي ،ط١ ، ٢٠٠٠م.

١٥. الرفاعي ، أنور ، الاسلام في حضارته ونظمه الادارية والسياسية والادبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، دمشق ، ١٩٩٧م.

١٦. السامرائي ، يونس ابراهيم ، السيد احمد الرفاعي حياته _ اثاره ٥١٢هـ – ١١١٨م/ ٥٧٨هـ –١١٨٢م ، بغداد، ١٩٧٠م.

١٧. السخاوي ، ابي الحسن نور الدين علي بن احمد بن عمر بن خلف بن محمود ، تحفة الاحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، مراجعة محمود ربيع و حسن قاسم ،ط ١، مطبعة العلوم والآداب ، القاهرة ، ١٩٣٧م.

١٨. السمهودي ، نور الدين علي بن أحمد ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج٤ ، ط٤ ، بيروت ، ١٩٨٤م.

١٩. السيوطي ، جلال الدين ، تنوير الحلك ، ج٢ ، تركيا ، ١٩٨٦م.

٢٠. الشافعي ، علي ابي الحسن الواسطي ، خلاصة الاكسير في نسب سيدنا الغوث الرفاعي الكبير ، ط١ ، مصر ، ١٣٠٦هـ.

٢١. الشتري ، محمد بن ناصر بن عبد العزيز ، مظاهر الغلو عند الصوفية حقائق وملابسات ، ط١ ، الرياض ، ٢٠٠٣م.

٢٢. الشعراني ، عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى ، تحقيق احمد عبد الرحمن السائح و توفيق علي وهبة ، ج١، ط١، القاهرة ،٢٠٠٥م.

٢٣. الشهابي، قتيبة ، مشيدات دمشق ذوات الاضرحة وعناصرها الجمالية ، دمشق ،١٩٩٥م.

٢٤. الشيبي ، كامل مصطفى ، الصلة بين التصوف والتشيع ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٩م.

٢٥. الشيخ المفيد ، محمد بن محمد بن النعمان بن المعلم العكبري البغدادي ، تصحيح اعتقادات الامامية ، ط١ ، قم ، ١٤١٣ هـ.

٢٦. الصفدي ، صلاح الدين خليل ايبك ، الوافي بالوفيات ، تحقيق احمد الارناؤوط ، تركي مصطفى ، ج٧ ، ط١ ، لبنان ، ٢٠٠٠م.

٢٧. الصيادي ، محمد ابو الهدى ، الطريقة الرفاعية ، مصر ، ١٣٢٥هـ.

٢٨. الصيادي ، محمد ابو الهدى ، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الاكابر ، بيروت ، ١٣٠١هـ.

٢٩. الصيادي ، محمد ابي الهدى ، البرهان المؤيد ، ط١، مصر ، ١٣٢٢هـ.

٣٠. العاني ، علاء الدين أحمد ، المشاهد ذات القباب المخروطية في العراق ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٢م.

٣١. الفاروثي ، ابي عمر عز الدين احمد بن الامام محي الدين ابي اسحق بن الامام ابي الفرج ، ارشاد المسلمين لطريقة شيخ المتقين ، مطبعة محمد افندي مصطفى ، ١٣٠٧ هـ.

٣٢. القادري ، ظهير الدين ، الفتح المبين فيما يتعلق بترياق المحبين، المطبعة الخيرية ، مصر، ١٣٠٦ هـ.

٣٣. محمد ، سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ج١ ، مصر، ١٩٧١م.

٣٤. النبهاني ، يوسف بن اسماعيل ، جامع كرامات الاولياء ، تحقيق ابراهيم عطوه عوض، ج١، ط١ ، الهند ، ٢٠٠١م.